

الباب الحادي والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ - ١٠٨٥)

الفصل الأول

النديس بندكت حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتي كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة في المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشؤه بندكت النرسيانى Benedict of Nursia في بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة في الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجنسي ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح في حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سيبياكو Subiaco في التلال السبينية ، واتخذ له صومعة في كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين في عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التي بعث الشيطان ذكراها إلى قلبه ، وألح به هذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر في أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه في وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح في حال يرثى لها ، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه » .

وبعد أن عاش في هذه البرية الموحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزهو وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم شهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم في النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فام يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطبقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حماسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم *Cassinum* القديمة التي تبعد عن كپوا أربعين ميلاً جهة الشمال الغربى . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ في مكانه (حوالى ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتمت به فيما بعد معظم الأديرة في بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حدوا حدو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقاً عليهم مشبطاً لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ؛ فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعياً لا فردياً ؛ نحالياً من التنافس والتظاهر ، يضع في كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء في الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ؛ ثم يضع الراهب الحديد هذا القسم الكتابي بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه في احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم في جميع الشؤون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئاً « سواء كان كتاباً ، أو لوحاً ، أو قلماً - أو شيئاً على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكاً مشاعاً » (٣) . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد في الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً : . . . لأن الله لا يعظم الأشخاص (٤) .

ويجب على من في الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه » (٥) . ومن واجب كل راهب أن يعمل - في الحقول أو الحوانيت ، وفي المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئاً حتى منتصف النهار ، وفي أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا في الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة في اليوم ، وفي أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النييد مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرماً عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » - أي ساعات للصلاة كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا في الساعة الثانية صباحاً ، ويذهبوا إلى المعبد القائم في الدير ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسبيحة الليل » وهي قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسبيحة الصباح » . وفي الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة - صلاة الساعة الأولى ؛ وفي التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفي منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ؛ وفي الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفي الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الختامية ؛ وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعي وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون^(٦) .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التي يتبناها الرجل الكامل المسيحية :

١ - يجب أولاً أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ،

وكامل قوته .

٢ - وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل

وألّا يزني . . . أو يسرق . . . أو يطعم . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه

أن يعظم الناس جميعاً . . . (١١) وأن يظهر جسمه . . . (١٣) وأن

يجب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب في الأذى وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يجب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب في أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه أن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله (٧) . . .

وكان دير البندكتيين ملجأً يواسي المنكوبين في عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبرياتكم وحرثكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين في جميع أنحاء أوروبا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهي بمثابة جزائر شيوعية في بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول في العصور الوسطى ، وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللمبارد الهمج في عام ٥٨٩ ؛ فلما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون في عام ٨٨٤ ؛ فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون في عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض في عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثاني

جريجورى الأكبر ٥٤٠؟ - ٦٠٤

بينما كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين فى مونتى كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية فى المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسى ، ولهذا أصدر جستنيان فى عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار الأباقة والرهبان المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللاتقنين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية »^(٨) ولكن جثة جستنيان لم تكف تبرد فى مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالى إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسى وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها فى إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلاً ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم :

ولد جريجورى فى رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه فى قصر جميل على سفح تل كئيليا Caelian . ولما توفى أبوه ورث عنه ثروة ظاهرة ، وارتقى بسرعة فى سلم المناصب السياسية فكان فى الثلاثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

في نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التي يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدو من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت^(٩) ، أنفق معظم ثروته في إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقي منها صدقات للفقراء ، وتخلي عن جميع مظاهر طبقتة ، وحول قصره إلى دير للقديس أندرو St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم في معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذي يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة : غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التي قضاها في الدير ويقول إنها أسعدتني حياته .

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابعاً » في خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثاني سفيراً له في البلاط الإمبراطوري بالقسطنطينية . وظل بين الأعياب السياسة وأهبة القصور يعيش معيشة الراهب في عاداته ، وطعامه وصلواته^(١٠) ، وإن كان مع ذلك قد نخر العالم وما فيه من مكر وخداع خيرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا في عام ٥٩٠ طاعون دملي مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجوري ليخلفه ، وكان يعز على جريجوري أن يترك دير فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينما كان جريجوري يعد العدة للهرب ، أتى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجوري آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا^(١١) .

وكان وقتئذ في الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع في رأسه في هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، ألقى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصداه ، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضي العزيمة ، رقيق العاطفة ، وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش في القصر البابوي كما كان يعيش في الدير - يلبس ثوب الرهبان الحشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين في حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه في معظم أوقاته في مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر في يوم من الأيام شاعراً جوالاً على باب قصره ومعه أرغن وقرود ، فأمر جريجوري الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب (١٣) . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة في تشييد صروح جديدة بل أنفقها في الصدقات ، وفي الهبات للمعاهد الدينية في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وفي افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة في رومة كل شهر قدرًا من الحبوب ، والنيذ ، والخبز ، والزيت والسمن ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ في كل يوم إلى العجزة والمرضى ، وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمتكويين : من فلاح يشتغل في أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يؤثنها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ ، راعياً يعني بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق في أن يؤلف كتابه المسمى Liber Pastoralis curae (٥٩٠) ، وهي كتاب موجز في النصائح يسديها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه في تصريف الشؤون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بالآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامي

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه في أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خدم الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة في قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القديس ولعله كانت له يد في نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقع ما كان قائماً في ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضي التي كان يهبها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان في هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم في الشؤون السياسية ، يغلبهم في معظم الأحيان ويغلبونه في بعضها ، ولكنه ترك في آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية في إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسبليتو مدينة رومة - وكان في حرب مع نائب الإمبراطور في رافنا - عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير في ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر اللمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى في تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها في الشؤون الدنيوية ، ويعتذر لجماعات المصلين لعجزه عن أن يلتقى عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التي

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيح له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل في أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكي السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي ، وكسب إنجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع في أحد أسواق الرقيق في رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جىء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلاً . . . وأسفاه ! إنى ليحزنى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالصة من الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم بهذا الاسم (*) لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخلق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات (١٥) » .

ثم تقول القصة بعدئذ - وهى أطرف من أن تصدق - إن جريجورى استأن البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى إنجلترا ، فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جرادة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » - أى أقم فى مكانك (١٦) .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان في دير القديس أندرو . فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فآتم بالسلم في عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب في تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر في عقلية الناس في العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقلية أصدق تعبير ؛ ولهذا فإن كتابات أوغسطين وچيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً في الدين توأم عقلية الجماهير ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدري هل كان يؤمن بهذا الإدارى العظيم حقاً بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت - وهى فى واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير ، وخير ثرائه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته فى مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن رؤى رجال الدين فى إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارىء عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات ، وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر في هذه المحاورات ذكر الخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التي قيل إن بطرس وبولس قد قيدها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمم : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم محاضراته في ميدان الدين هي كتابه *Magna Moralla* - وهو شرح لسيفر أيوب في ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى فى كل سطر من سطورهِ ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث فى كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختتمها بقوله إنه يجد فى سيفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معانٍ ، وأنه فى حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس فى رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ فى لغة شعبية توضيرية ، ولهذا فهى فى حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهى الأمانة على التقاليد المقدسة هى وحدها التى يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التى نسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه . وليس في مقدور أفهامنا أن تعرف الله ، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه » (١٩) ولهذا لا يحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير فى النفس البشرية : أليست هى القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . فى هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها » (٢٠) . ومأساة الإنسان الكبرى هى أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فالتت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هى هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهى نار لا ينطفى لهاها مجسمة ، ولكن فى مقدورها رغم ذلك أن تظهر الأرواح والأجسام ؛ وهى أبدية ولكنها لا تطفى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم فى كل لحظة يقضونها متألمين رعبهم مما ينظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقيه أحبائهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء (٢١) . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة فى نجاتهم ، وهى قوة فى متناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها هوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها فى عام ٥٩٩ يقول « قضيت أحد

عشر شهراً قلماً غادرت فيها فراشي ، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم . . . إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت » ، وكتب في عام ٦٠٠ مرة أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بي الألم إلى حد أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها بالقداس . وأنا أحس في كل يوم بأنني على حافة القبر وأني في كل يوم أرد عنه » . وكتب في عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه الفراش ، وما أعظم اشتياقي إلى الموت » (٢٢) . وجاءه الموت في عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجوري المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو عنه إلا أثر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجوري من رجال العلم ولا من المتبحرين في الدين . ولكن هذه البساطة هي التي جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهتدى بهديه في تواضع فاتن جذاب . أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل (٢٣) ، فبينما كانت يده تدير شئون إمبراطورية مشنتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينية المرعبة التي ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات الواردة في القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ، وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحري ؛ ويعيش في عالم مليء بالملائكة ، والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً قائماً على أساس العقل ، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون ، وكان الدين الرهيب هو وحده الذي بقي فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت بعد هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هي الأساس الموثس الذي بنيت عليه المسيرة الإلهية .
ولكن هذا الرجل بعينه الذي يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ،
والذي حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان في قوة إرادته
وفي قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا ينثني عن قصده ،
صارماً في أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع
للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ،
وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلتا
الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه في العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف
بفضله وقده من جاء بعده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به
« جريجورى العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ - ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهذاب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ، بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون. أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذي المذهب اليهقوبي - القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، - وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكاثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر في عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر » (٢٤) . ولكن رجال الدين في الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كنيستانس Constans الثاني منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يقبض على البابا ويأتي به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفي إلى شبه جزيرة القرم ، وبقى بها إلى أن مات في عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكوني السادس الذي اجتمع في القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحابي الخارجين على الدين (٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التي آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التي تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وبجيزة في سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق ، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أوراقتنا عن أن تحمي الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) أن يستولي اللبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغيثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية في الخطر . فقد لبى بيپين القصير نداءه ، وأخضع اللبارد ، ونفخ البابوية « بهبة بيپين » التي أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسح أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريجورى الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة لاكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة في بادىء الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعانهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك في ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكاً واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سطات

إقطاعية كادوا يستقبلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستيائهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية ، والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة في أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متر عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم إزدورس مركاتور Isdorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمت الأول (٩١ - ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiades (٣١١ - ٣١٤) . وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بالألا ينخلع أى أسقف من منصبه ، وألا يدعى أى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفضل في أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمى المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض . وكان البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوروبا الغربية ، وأن « هبة پيپين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان في وسع كل من أوتي قدراً من العلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمي كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التي تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم (*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً في تاريخ البابوية ، تلك هي شخصية نقولاس Nicholas الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فذا في قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرّب على مهام منصبه السامي بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثاني العظمين في قوة الإرادة ، ويفوقها في سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقتين على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين - حكاماً كانوا أو محكومين - في شئون الدين والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد في البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها حمل الجدل أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثاني ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزو وثلا في عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالاً للشك ، عما في هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة في هذه الأيام على أن هذه الوثائق التي كانت مشاراً للجدل ووثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثيرجا Theutherga ويتزوج عشيقته والدرادا حقق الرؤساء
الدينيون مملكته رغبته ، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل
البابا مبعوثيه إلى منز لينظروا في الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين
برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تريير وكولوني هذا
القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر
قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد
زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه .
وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على
أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين في
أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من
منصبه ، فلجأ الأسقف إل نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر في
قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ؛ ولما تردد هنكار في تنفيذ حكم
البابا هدهد بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى
بوقف الصلوات في جميع كنائسها . واستشاط هنكار غضباً ، ولكنه خضع .
وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ،
ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد
ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التي أصدرها البابا كانت كلها
تقريباً في جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان
هو السراج الوهاج الذى أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين في ذلك
العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع
رقعة من التي كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن في وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم في مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق في العالم المسيحي الشرقي إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التي يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما في الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وقتئذ في القسطنطينية - بل في بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة في القسطنطينية وحدها يفوق عددها في الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون في كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون في طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً في اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات في أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعنى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتحزبهم ، وشرهم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ - ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion في القسطنطينية مثلاً أعلى في التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته في طفولته إلى الكنيسة ، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهين والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت في الغرب ، ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة في الشؤون الكنسية . وقد نفي أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل في منفاه يقاوم محطى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين في هذه القرون من اختلاف في اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما في هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم في المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآنية ، والزخارف المقدسة في الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مميلاتها في الغرب . فكان ذراعا الصليب اليوناني مثلاً متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ؛ وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمروهم في الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يخلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها لإرسالاً يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين في الشؤون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا في أمور الدين ؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذي ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حده ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالي عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التي نادى بها بردسانس Bardesanes في بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الرباني ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا بمرزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بذور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في طوائف الملخاني Molokhani ، والخليستي Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك في أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التي أدخلت على العقائد النيقية في طيلطة عام ٥٨٩ ، والتي تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتي لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذي ينبعث من الأب » ، ex patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث في عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد في طليطلة فجعله *ex patri filioque procedit* أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً في المذهب اللاتيني إلا في القرن الحادى عشر .

وقام في هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ؛ فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه مجتمى الأصنام راهب يدعى إجناتيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب في عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلاً تقياً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشره أرملة ابته المحرمة عليه طرده إجناتيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفي إجناتيوس ، ورفع إلى عرش البطريرقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهديباً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٨٢٠؟ - ٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ؛ وكانت محاضراته التى يلقيها في جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريرقية قد تم موسوعة في مائتين وثمانين بابا استعرض في كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر في بقائه مرتبطاً برباط الود

والصداقة مع أمير كريت . واستاء رجال الدين في القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجأة من بين العلمانيين إلى مقام البطريكية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثه إلى القسطنطينية لينظروا في الأمر ، وقرر في رسائله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها في أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكروا عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التي وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجناتيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ؛ ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغربين على أملاكه من الصقلية والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ؛ ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم تحرق الكنائس في ضواحي القسطنطينية ؛ وبيننا يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق بارباس Barabbas وتقتل المسيح (٢٧) » . ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى في الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الحديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الرباني . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاد مجلس كنسى إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قد مات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوروبا (٥٢٩ - ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث في التاريخ الديني لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية في الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملهدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساك به ، انتزعتها منه في يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا في كراسهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ، ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحي لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لاقرا المقدس الذي أقيم على جبل آثوس Mt, Athos في عام ٩٦١ يضارع في عظمته البارثون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية في القرن التاسع الميلادي عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها في عام ٧١١ قد خرج من أيدي المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها في آسية وأفريقية وواصلت فتوحها في أوروبا .

(*) في هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها في بعض مبادئها وحسبنا دليلاً على هذا قول الله سبحانه وتعالى نبيه : « وجادلهم بالتى هي أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع في أيدي المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليوناني واللاتيني ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزیدورس (١٠٥٨ - ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية بباين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف في المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج في النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية في الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل في بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفي رومة لم تشأ الكنيسة في عهد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة في التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن البانثيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واستحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المخلص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجيء الحجاج إلى تلك المباني ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المرونجية لم يكونوا يرتابون في قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ؛ فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضي والأموال . وكانت الكنيسة في فرنسا كما كانت في غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء الثائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد قليل . وكان من تخريبات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالي الروماني ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحي يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم في الحروب (٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة في غالة ، وأحسنهم تعليماً ، وأقلهم فساداً في الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صداقة مخلصه في تعليم الشعب الذي كان يعاني الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفي تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست في الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية في أبرشياتهم ، وكانت حمايتهم الملجأ المفضل للمتقاضين في الشؤون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينا وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعدمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشى المستشفيات في كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu - « نزل الله » - الذي افتتح في باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان جرمان St. Germain ، أسقف باريس في النصف الثاني من القرن السادس في جميع أنحاء أوروبا بما بذله من الجهود في جمع الأموال - وإنفاق ماله الخاص - لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف مينز جيسور الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ - ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً في التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكمة بالمباراة أو التحكيم الإلهي ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما في محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء » (٢٩) . وكان هنكار الأرسقراطي كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ - ٨٨٢) رئيساً لنحو (٢٤ - ج ٣ - مجلد ٤)

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصغر ، وكاد ينشئ حكومة دينية في فرنسا .

واتصفت المسيحية في كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت في أيرلندة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخیال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلي في البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة - حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثني عشر راهباً يقيمون في أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشؤونها ومنتشرة في أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجي من أي نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون في صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر - « الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين » - خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج في المدارس الأيرلندية في القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعي الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة في عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة » (٣٠) . وهكذا انعكست الآية واسترِدَّ الدِّين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون بلقون بأنفسهم على فاتحى إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ،

والترويجيين ، والدنمركيين ، وعلى المسيحيين الأيمن نصف الهمج في غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضي بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هي التي أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلاوات كما لم تتلألاً من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التي كتبها له (حوالي عام ٦٧٩) آدمنان Adamnan أحد خلفائه في أيونا Iona . وقد ولد كولمبا في دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى في عروقه دم الملوك ، وكان كما كان بوذا قديساً في وسعه أن يكون ملكاً . وبدا عليه وهو طالب في مدرسة موثيل Moville من الورك ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أي عماد الكنيسة . وأنشأ مذ كان في الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها دري Derry ، ودرو Durrow ، وكاز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت » (٣١) ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك ديرمويد Diarmuid ؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهوى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل في معركة كولدرفنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ في جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلنده الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل في جزائر هريده Hebrides ، واسكتلنده ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافاً من الوثنيين إلى الدين المسيحي وزخرف ثلثمائة « كتاب نبيل » مات وهو يصلى عند المذبح في الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيهه به في روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود في لينستر Leinster حوالي عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجدده وهو في الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه في لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلي كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفي مجتمع تتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودمائة الأخلاق من رابع ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق (٢٢) .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر مما تكون بالحداد : ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمه أو نسي أن يدرم أظافره قبل تلاوة القديس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الرباني ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسي أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك في نزاع ، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة (٢٣) . ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابي ، فقد كان في دير مكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرثون الأرض ، ويزرعون ويحصدون ، ويصومون وبصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذي لا ينقطع iaux perennis ، فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (٢٤) . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة في العصور الوسطى .

ولم يكن المزاج الصارم الذي وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألقى كولمبان ، الذي يحرم النزاع ، نفسه في نزاع متكرر مع الأساقفة الذين

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمانيين الذين لا يقبل تدخلهم في الشؤون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تدير عليه الكنيسة في بادئ الأمر ولكنها غيرته في عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولمان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين في الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدرأ كنائس الغرب » (٣٥) . ثم طرد الأيرلندي المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشيهره بآثام الملكة برنهاد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندا ؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ؛ وعبر كولمان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل باقاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولمان كان في حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم في اطمئنان على كتفيه وتدخل في قلنسوته وتخرج منها (٣٦) . ثم ترك زميلاً له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوثار Sf Gothard Pass بعد أن عانى في سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير بديو Bobbio في لمباوديا عام ٦١٣ حيث توفي بعد عامين في صومعته المنعزلة التي كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين في بريطانيا في عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا في عام ٤٢٩ ليقتضى فيها على الزنادقة البلاجيين (٣٧) . ويؤكد لنا ونيم الملمز بري William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الدين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمدا لله » في وجوههم (٣٨) . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولبا نورثمبرلاند في آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك في أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثني تزوج برتا Bertha الأميرة المروفتنجية المسيحية . واستمع إثلبرت في لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهياً له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن في كنتبري . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وخذنا حذوهما كثير من رعاياهما . وفي عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتبري الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى في إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله » (٣٩) ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحويلهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إيطالي آخر يدعى بولينوس Panlinus المسيحية إلى نورثمبرلاند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبرلاند دعا رهبان أيونا إلى الحجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ؛ وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديراً أخذ اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كيثرت St. Cuthbert (٦٣٥ ؟ - ٦٨٧) وراءه في دير ملروز Melrose ذكريات طيبة لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب
الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المنتصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرة الرجال
والنساء التي قامت وقتئذ في إنجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة
العمل ، بكدهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من
حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فزعموا هنا ، كما تزعموا في
فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه
في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره .
وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ،
وأن لأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب ،
وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا
الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ؛ وإنذر البلاد بأنه لم يبق من الجنود
من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو^(٤٠) . وسرعان ما أثبت الدنمركيون ،
ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين
اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي إنجلترا والذين اتبعوا
الشعائر الرومانية والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم
الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid
بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع - وهو
من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح - في صالح رومة . وقبل
الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة
الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية
وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز .
ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في
أيرلندا اجتاز هو واثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى وليبرورد يد بيبين الأصغر حاميه ونصيره ؛ ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثوالم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه (٤١) .

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ - ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقبه خافاؤه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعيّن بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعزم أن يتم العمل الذى بدأه وليبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الدين فتحوا رومة على أيدي المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوربا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية في عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما ميثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشأ في سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلمتا لغة الصقلية . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدتا أن الصقلية ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون في كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التي دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E في الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلية للأصوات التي لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل هذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاها أن تستحوذ على الصقلية ، فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل وميثوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما ميثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلية ، ثم حرمها استيفن الخامس ، واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهي التي تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وپولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلية ، وقدمت ولاعها للكنيسة اليونانية ، وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وقرض الملك هارولد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحي على الدنمرقة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذي طلبه الإمبراطور أتو الثاني للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته في الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل فلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثاني إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها (٤٢) وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسُلطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه في القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر في العالم الأرثوذكسي اليوناني .

وكان الجنود المظفرون في هذا الفتح المسيحي لأوروبا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن المرضيات في هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضي البور ووزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ، ولقد أقاموا في البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ؛ ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبشوا النظام الأخلاقي وروح الشجاعة والطمأنينة في نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنباثي يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاماً ، وقد بلغ من إخلاصه في هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلاً مثلاً علياً للفضيلة ، والحشوع ، والجد ، وكان لابد من قيام

حملة في كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التي شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون في نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماسهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نذوراً جرى بهم إلى الأديرة وهم أطفال سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جرى بهم وهم رُضّع في المهد ؛ وقد ظلت هذه النذور حرماً لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية في عام ١١٧٩ التحال منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره^(٤٣) . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام في الأديرة الفرنسية فدعا في عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان في آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنباي أن يقرر السير في جميع أديرة بلاده على القواعد التي وضعها القديس بندكت النورسيائي St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الحديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته في عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى في دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجههم في العالم غير الديني ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة في خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيرادها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذي لا يستحق الذكر منها ، في أوزبا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدور رئيس دير كلوني (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها ، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذاً للعفة والطهارة في حرمة المسور ؛

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى «(٤٤)». ومن دير كلوني جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثني عشر راهباً قد أنشأوا حوالي عام ٩١٠ ديراً في هذا المكان بين تلال برغنديية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا . وفي عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر في قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية ويسرها من ناحية الجهود الجسمية : فمنع التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الخمر والنيذ ؛ ولكنه شدد في الاستمساك بالإيمان القديمة التي يلتزم بها الرهبان الفقير ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غرارها في أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذي لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلي أو سيد من الأشراف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلوني يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلوني وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ - ٩٩٤) ، وأدويو Odilo (٩٩٤ - ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ - ١١٠٩) حركة تآخي الأديرة من فرنسا إلى إنجلترا ، وألمانيا ، وبولندا ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلوني » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفي دير تعترف بأن دير كلوني أبوها وحاكمها . وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً في يد البابوية تسيطر به على رجال الدين في خارج الأديرة ، ويسرت في الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدي الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوي على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان في الأديرة من اضطراب ، وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاقي ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسي في أراضيها ، إذ دعي إلى إيطاليا ليصلح دير مونتسي كسينو نفسه «(٤٥)» .

الفصل السادس

البابوية في الحضيض (٨٦٧ - ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التي وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعب المراس حتى في الوقت الذي كان فيه النسر الإمبراطوري يقبض بمخليبه على الفيالق الضخمة يسيرها أينما شاء . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء في أيدي أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون في خلفاء المسيح في الأرض رجالاً مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية في اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملاجئاً عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوروبا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بالألا يختار البابا بغير رضا رجال الدين في رومة وأشرفها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفنتو ، ونابلي ، وتسكانيا ، وأشرف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا في عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا في المدينة يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية في القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه في تاريخها كله . من ذلك أنه في عام ٨٧٨ دخل لامبير Lambert دوق اسبوليتو مدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفي عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلقى في نهر التيبر^(٤٦) . وثار في العام نفسه ثورة سياسية في رومة خلع على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل في السجن خنقاً^(٤٧) . وظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والحلق الدنى ، وبقيت أسرة ثيوفيللاكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسي البابوية (٩٠٤ - ٩١١)^(٤٨) ، كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع^(٤٩) ، وما من شك في أنه كان زعيماً ممتازاً في الشؤون الزمنية ، لأنه هو الذي عقد الحلف الذي رد زحف المسلمين على رومة في عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيدو Guido دوق تسكانيا ، وأخذنا ياتمران نخلع يوحنا ، وعملاً عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا في السجن حيث مات بعد أشهر قليلة ميتة لا تعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا في عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٥) إلى كرسي البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث^(٥٠) . وفي عام ٩٣٢ سجن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شؤون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثاني . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهلك والدعارة في قصر لاتيران Lateran (٥١) .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً في عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة في عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسي . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليعة أبيه ، وضاجع أرملة ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلع ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسي البابوية ، وكان هذا المرشح الذي أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ - ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطوري في رومة وبتر أعضائهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤) (٥٢) . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسي البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة في أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أي بابا في المستقبل (*) . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ - ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشرف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ - ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو فرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجاً على البابوية ، ولا ترى

لأعماله أو قراراته قيمة ما . . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ - ٩٨٤) ، وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة في فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلاً . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعي كنيسة الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ - ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، ونخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، ونخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجذع أنفه ، وأمر أن يطاف به في شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (٩٩٨) (٥٣) . وعاد جريجورى إلى كرسي البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، في أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو في مكانه رجلاً أصبح من أنبه البابوات جميعاً .

والد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسبانيا عملاً بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت يرشالونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاماً في التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه في ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق في مدرسة كنيسة لها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ - ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون^(٥٤) . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار^(٥٥) . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية^(٥٦) .

ولما توفي أدليرو (٩٨٥) سعى جابرث ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف يأتمر بهيو أصدر مجلس كنسي قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جبرث رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أقنع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جبرث من منصبه . فما كان من العالم المستنل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم ، وهياً عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة رافنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جبرث باسم سلفستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلفسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحده العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جبرث ملكاً فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جبرث في السنة الرابعة من جلوسه على

(٢٥ - ج ٣ - مجلد ٤)

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانيا Stephania عينها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولها ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهي في العام المتم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل (٥٧) ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتؤتم ، وتصلي ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام ١٠٠٠ بل إننا لا نجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة (٥٨) .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشتركون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ - ١٠٢٤) الذي رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلاً ذكياً قوياً ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ - ١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش (٥٩) ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجورى السادس (١٠٤٥ - ١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب . وأدهش جريجورى رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذى دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها ممن كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنري الثالث ليقضى على هذه المهازل ، ف جاء إلى
استري Sturi القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستري في
السجن ، وقبل استقالة بندكت ، ونخلع جريجوري لاعترافه بأنه ابتاع
منصب البابوية . وأقنع هنري المجلس بالأسبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه
الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور ؛ واختير لهذا المنصب
أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت الثاني (١٠٤٦-١٠٤٧) ،
ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دموس
Damasus الثاني (١٠٤٧-١٠٤٨) الملاريا التي كانت وقتئذ تنتشر
باستمرار من منافع كمانيا التي لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر في ليو
التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ،
واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

الفصل السابع

إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت :
وهي المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى
بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين
الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسي
لما يعاصره من فساد في الشؤون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم
أنفسهم مصدرأ لهذه المتاجرة ؛ مثال ذلك أن أم جويرت النوجنتي
Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة في أن تهبه للكنيسة ، فقدمت
المال لرؤسائها لكي يجعلوه قساً في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من
عمره . وإذا كان الأساقفة في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون
الشؤون الزوحيية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً
في بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من
الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزميين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان
الشهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مآثم للحصول على هذه
الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة
في نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدي (٦١) ؛ وأن فيليب الأول
ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة
يواسيه في إخفاقه يقول : « أتركني أجنى المال من منافسك ، ثم حاول
أن تسقطه باتهامه بابتياح منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك » (٦٢) .
وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنها شارلمان فيعينونهم بانتظام
أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourges ، أما في

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم (٦٣) ، وأضحى كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه (٦٤) . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يبتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجبات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم (٦٥) . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغضون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية (٦٦) ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى نارين إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه (٦٧) . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفاً يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسى قد استحوذ على الكنيسة (٦٨) .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا ، وكان البابا هديران الثانى نفسه متزوجاً (٦٩) ؛ وكتب راثيريوس RATHERIUS أسقف فيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة (٧٠) . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم ينفق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان (٧١) ،

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى - بل إن الرأي العام كان يتسامح في التسرى نفسه أى في اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون حياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary في عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطي « للشهين من غير رجال الدين ، وللزائنين من القسيسين » (٧٢) ، وأن بعض الشماسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس » (٧٣) ، وقد اتهم بيد الموقر في هذا القرن بعينه « بعض أساقفة إنجلترا بأنهم » يضحكون ، ويهزلون ، ويروون الأفاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون . . . يحيون حياة الملبذات والفسق » (٧٤) . وكثرت هذه التهم وأمثالها في أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ، فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله في فسادهم الخلقى ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ - ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالة التى يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ؛ وفي هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعية » . ويطلب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجته وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيجادل أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدي إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين في أوروبا تشبه مثلتها في بلاد الهند ، وأن ما يضيفه هذا السلطان الاقصادى على القساوسة ذوى الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبنى الإنسان ، وأن مستواه الأخلاقى يجب أن يعاوى على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضنى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واحد منها - هو الذى عقد في بافيا عام ١٠١٨ - قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين (٧٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية ، والملمات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاماً لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضطاع بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة في عام ١٠٤٩ ، معتزماً أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس في مدائن أوروبا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيئته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى في قلوب الناس من إجلال ؛ فأخفت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جدفري اللورينى الذى نهب الكنائس وتحدى الموكحين أصدر البابا قراراً بحرمانه ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها في فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل في إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية في كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألماني . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة في ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاك أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة في البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياهم ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنهم ليو أشد التأييد ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرّم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علناً عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسراريهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلاً عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرّم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد في مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، لإصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات في ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا في عام ١٠٥٠ ورأس مجلس قرشلي Vercelli وحرّم فيه آراء برنير التورى Beregnier of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمال أوروبا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألماني رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات في سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عامي ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة في ورمز وأخرى في مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنري الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن بندلف Pandulf

دوق كپوا أنى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها
معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه
جيش ألماني يساعده على طرد پندالف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ،
ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ،
وكاد فرسانهم وخدمهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة فى الحروب .
وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه
يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ
إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه
سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق
الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط
وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه فى الصلاة . وأدرك النورمان
أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب
 وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت فى كنيسة
المقديس بطرس ، وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء
العرج ، والبيكم ، والمجدومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر في الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في عهد جلوس سبانت ليو على كرسى البابوية . وبينما كانت أوروبا الغربية تتخبط في ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهاتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ - ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها في جنوبي إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب في حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان ديني مطلق على العالم المسيحي . وكان اليونان في ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والإنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتزعهم فئة فاسدة من رجال الدين ، وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطي ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا ، وتوقيع البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية - كانت هذه الحوادث السياسية التي تحز في النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هي التي شطرت العالم المسيحي شطرين أحدهما شرقي والآخر غربي .

في عام ١٠٤٣ عين ميخائيل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلاً من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان في الأصل راهباً ولكن الذي رفع من شأنه

هو تاريخه السياسى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريكية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع فى عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً فى القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغاق كرولاوريوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرّم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها . وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولاوريوس ، يطلب أن يعترف البطريرك بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان » (٧٦) . ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلاً إلى القسطنطينية ليناقدشوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاوريوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل : ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسي البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولاوريوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من خلق اللحنى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها » (٧٧) . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين .

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات في تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألماني يوحى بأن صاحبه من أصل ألماني ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه السعة الخالصة . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة في قرية سوفانو Sovano الواقعة في مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه في دير سانت ماري القائم على تل الأفتين في رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا في عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند في منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد في السنة التي قضاها في كولوني الشيء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له في الصراع الذي نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليلاً من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره في الوقت نفسه مندوباً للبابا في فرنسا ؛ وفي وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية في الشؤون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا فكتور الثاني (١٠٥٥ - ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يستخدمانه في المهام الكبرى ؛ ولما ارتقى نقولاس الثاني عرش البابوية في عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل في ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذى لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران في عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بحمايته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ؛ وأقصد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، واكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامة نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل - جريجورى .

وكان قصير القامة ، عادى الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشجذ همته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولى غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوربا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندي وساقوى ، وإلى الإمبراطور هنرى الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتمزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندي فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال تزعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنعقد برياسة نقولاس الثانى وهدبراند فى عام ١٠٥٩

قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يدافعون عن مبدأ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الرباني الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين (٧٨) . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمع ديبى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوروبا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ، وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعلى عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلي عن مناصبهم على التخلي عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يجب آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعنى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أذواق سوابيا وكارنثيا ، وغيرهم من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم (٧٩) . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن إربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكستوس Calixtus الثاني أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثاني قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زواج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتبى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها - وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلاً - حسب قوانين الإقطاع - أن يكون أولئك الرؤساء الدينيون - أو الأساقفة منهم فى القليل - مدينين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدينين بها فى غير تدمر فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضى الألمانية - التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة - عن ساطان الدولة (٨٠) ، وعمما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وأرتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة للمبارد المنتمون إلى أصل ألماني والمدنيون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك (٨١) ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التى وهبها الملوك لهم (٨٢) ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضى الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين في المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاصد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس في الشرور الدنيوية ، والفساد الخلقى وهي الآثام التي ظهرت في الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلاً للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخي صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوربا وتحكمها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعي . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدره من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم - قبل حركة الإصلاح الديني بزمن طويل - أن ينساب الذهب في شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس - من ألمانيا إلى إيطاليا^(٨٣) ، وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينة لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التي تزديها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتوتية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة في الشؤون الروحية ، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة في الشؤون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو في نظر جريجورى ثنائية مختلفة النظام ، ويرى أن الاعتبار الروحية يجب أن تعلو على الشؤون المادية كما تعلو الشمس على القمر^(٨٤) ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة - أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله - في جميع المسائل التي لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمنياً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يمسخهم

البابوات أو يثبتوهم في مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليفة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله في أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال (٨٥) .

وقد تساءل جريجورى في رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذ الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الدين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون في الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقلون عنهم - أى الشعب - جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ » (٨٦) وقد بدا لجريجورى ، من نظرتة إلى ماساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذى نخم عليها دهرأ طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية فى القليل ، إن لم تكن عالمية .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيدته رئيس الأساقفة أو البابا نفسه (٨٧) . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Chalon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه فى عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك فى حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية فى فرنسا إذ أبى فيليب أن يصلح شأنه (٨٨) . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون فى المناصب الدينية ،

(٢٦ - ج ٣ - مجلد ٤)

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم في ألمانيا نفسها .
واجتمع في فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان في رومة .
برئاسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج
رجال الدين ، وتعيين غيرهم في المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد
صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب
الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف
أسقفى بافيا وتورين ، ونخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف
بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة
بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه
جريجورى دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يرشح
شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد
رجال حاشيته المقربين بل إنه نخلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن
ينتظر موافقة البابا - وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ،
فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن
يجعل رفضه مطالب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة
لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو - وهى بلدان قريبة كل
القرب من مقر البابا - وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى فى شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى
هنرى ، وأمر حاملها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية يندرون فيها الملك بالحرمان
إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس . فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً
من الأساقفة الألمان فى ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون
منهم ، وتختلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد
الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى
كرسى البابوية بالرشوة والenf ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقة . . وكان مما شجع الإمبراطور على المضي فى خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت فى سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد فى بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مديلاً بهذه الحاشية المنتقاة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا » (٨٩) . وسلمت الرسالة إلى جريجورى فى مجمع مقدس برومة (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ؛ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ؛ وحرم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعفى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الخائن » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوروبا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان فى ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان فى هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا فى تريبور Tribur (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فلنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبى البابا فى

تريبور أن يجتمع مجلس في أوجزبرج في اليوم الثاني من فبراير عام ١٠٧٧ برباسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .

ولجأ هنري إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسول إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتي هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزعم أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنري في رومة . وبينما كان البابا في طريقه إلى تلك المدينة استضافته في مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقتة وموئيدته ؛ وهنا عرف أن هنري قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فليجأ إلى قصر ماتلدا الحصين في كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأبينين بالقرب من ريجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك في الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفي يوم من أيام الشتاء الذي لم تشهد إيطاليا مثيلاً له في برودته ، أقبل هنري ، كما يقول التقرير الذي بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسي إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . . . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى في حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة » (٩٠) .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنري دون أن يستشير الأمراء الألمان ؛ وكان يعرف أنه إذا خرج هنري عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التي أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحي أن يفهم كيف يأبى خليفة

لمسيح أن يعفو عن هذا التائب الدليل . وكان هذا الحادث نصراً روحياً لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دلباً ماسياً بارعاً هنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شىء إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدأ أن سياسة هنرى قد أخفقت . ولكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لقي عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيا عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية . وظل جريجورى يتذبذب طويلاً ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرّم هنرى مرة أخرى ، وحرّم على المسيحيين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية روذلف أن يغفر له خطاياها (مارس سنة ١٠٨٠) (١٩) .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى مينز مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ، وخلع المجلس جريجورى ، وأبد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، ونادى بجيبر Quibert كبير أساقفة رافنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى سكسونيا (١٥ اكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن روذلف قتل فى المعركة . وبينما كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بتأن من يختارونه خلفاً له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش وهو يخرقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى ببريت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه إنجلترا وأبد هذا الفتح ، ولكن ولیم لم يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حخته الملكية . ودافع أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلو سانتا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، ونخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملاً .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاته هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرّب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى مونتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرّم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فإنى أموت منفياً » . ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهدق قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطرساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالاً من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تغلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وخالول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية . . وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثانى زعيماً لأوروبا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .